ما بعد الاستعمار
قراءةٌ في آلياته الجديدة

د. محمود كيشانه[1]

الملخّص

حاول الباحث بيان خطورة وسائل الدوائر الاستعماريّة التي تخطت آلية الاستعمار المباشر للدول الإسلاميّة عبر استغلال ثرواتها المادية لتنتقل إلى مرحلةٍ جديدةٍ من الاستعمار المتمثّلة بالاستعمار العقلي للشعوب الإسلاميّة.

إنّ من أهمّ الأمور التي عالجها البحث هو كشف الآليات المستحدثة التي خطّطت لها الدول الاستعماريّة ونفذّتها لاحتلال الشرق الإسلامي وقد تمثّلت هذه الآليات بتجنيد شخصيّات من أبناء الشرق الإسلامي، لتنفيذ مخططاتهم الأمر الذي يعطى نتائج أفضل دون تقديم خسائر في القوّة العسكريّة البشريّة والماديّة، ولقد طرح الباحث عدة إشكالات منها: الغزو الفكري وعلاقته بالاستعمار الجديد بوصفه صورةً من صوره.

وتناول موضوع الاستشراق الذي يؤدي عدة أدوار منها، دراسة العقيدة الإسلاميّة ومعرفة سبب انتشارها في المشرق والمغرب الإسلامي، وتقويض الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلامي، فضلاً عن الوقوف على حقيقة هذه الحضارة من جميع جوانبها.

وتطرق الباحث إلى العولمة، إذ يرى أنّها قد ألغت الهويّة الداخليّة للفرد، وحوَلت العالم إلى قريةٍ صغيرةٍ وضعت فيها السلبيّات والإيجابيّات في آنٍ واحد، بيد أننا أخذنا أسوأ ما في العولمة.

كما تناول الباحث موضوع التغريب الذي يتمثّل بعملية نقل الحضارة الغربيّة بسلوكياتها وأفكارها إلى العالم الإسلامي بصورةٍ مباشرةٍ وغير مباشرة، ويرى أنّ من أسباب هو ضعف الوازع الديني والتنشئة الاجتماعيّة، وكذلك الإعجاب بالمنجز الغربي وحضارته الماديّة.

الكلمات المفتاحية: آليات الاستعمار، الاستشراق، التبشير، الغزو الفكري، ما بعد الاستعمار.

---

١. محمود أحمد عبد الرحمن علي كيشانه، كاتب وباحث مصري.

مقدمة

لا شك في أنّ الاستعمار رغم أنّه غير موجودٍ ظاهريًا بعد استقلال الدول الإسلاميّة، فإنّه واقعيًّا وفعليًّا يضرب بجذوره في أعماق هذه الدول، فالاستعمار الغربي – الذي لا يحمل أيّ قيمةٍ إيجابيّة من معناه على المستوى اللغوي – أدّى مهمّته القديمة في الاستعمار، فنهب الخيرات واستغلّ الموارد، وحينما بدأ الضمير الإنساني الدولي يصحو، وجد أنّه آن الأوان لفكّ أسر هذه الدول من هذا الطغيان الغاشم، وربما أنّ هذا الضمير لم يصحُ من الأساس، وإنّما تم فك الأسر لمرحلةٍ جديدةٍ من الاستعمار العقلي لتلك الدول بشعوبها الإسلاميّة.

ومن ثم يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الآليات الجديدة التي اتّخذتها الدول الغربيّة لاحتلال الشرق الإسلامي، فقد جنّد الاستعمار قبل الاستقلال العديد من جنوده للقيام بدوره المنوط به خير قيام، إذ ما كان له أن يترك بلادنا دون وصايةٍ يمارسها منذ عشرات السنين نتيجة الضعف الذي استشرى في بنيان الدول الإسلاميّة من أقصاها إلى أقصاها.

وهذه الآليات الجديدة التي يحركها الاستعمار متعددةٌ ومتنوعة، يحرّكها بسهولة، فضلاً عن أنّ هذه الآليات تصنع ما لم يستطع الغزو الغربي العسكري أنْ يفعله في عشرات السنين؛ لأنّها تغلغلت داخل البنى التربويّة في مجتمعاتنا مثل: الأسرة والمدرسة والجامعة، كما أنّها تغلغلت داخل المؤسّسات الرئيسة في الدولة سواء أكانت تشريعيّة أم تنفيذيّة. وهذا ما نجد أثره السلبي في بلادنا.

ومن هنا تبدو لنا أهميّة هذا الموضوع، حيث يميط اللثام عن الآليات التي يستخدمها الاستعمار في إحكام سيطرته على العرب والمسلمين وهو خارج الديار، كما يهدف إلى بيان الخطورة المترتبة عليها وما يجب علينا في مواجهتها.

فتكون الإشكالية الرئيسة التي ينطلق منها هذا البحث واضحة، وهي: ما الآليات التي ينطلق منها الاستعمار الجديد؟ وما الخطورة الآنية والمستقبليّة المترتبة عليها؟ بيد أنّ هذه الإشكالية ينبثق منها عددٌ من الإشكاليّات الفرعيّة وهي:

- ما الدور الذي يمارسه الغزو الفكري؟ وما علاقته بالاستعمار الجديد؟
- وهل يعدّ التبشير صورةً من صور الاستعمار الجديد؟
- ولماذا يعدّ الاستشراق الوسيلة الناجعة التي وإنْ مهّدت للاستعمار فقد كانت أيضًا إحدى

مخلفاته التي تركها لتؤدّي دوره في الخفاء، وسار على نهجه للأسف العديد من بني جلدتنا؟

ـ وكيف كانت العولمة آليةً من هذه الآليات؟

ـ ومتى صار التغريب الآلية المؤثّرة في هذه القضيّة وأين كان ذلك؟

ـ وهل الطابور الخامس له دور في الاستعمار الجديد؟

ـ وكيف استخدم الغرب الأقليّات والمنح الداخليّة والبعثات الخارجيّة وصندوق النقد كآليات ترسخ من وجوده وتحكمه في أرض العالم الإسلامي؟

ـ وماذا عن القواعد العسكريّة وآليّة إثارة النزعات القوميّة والعرقيّة والدينيّة كصورةٍ من صور الاستعمار الجديد؟

ـ ولماذا تعدّ آلية تهميش دور اللغة وآلية وسائل الإعلام وآلية السيطرة على دور التعليم والثقافة من الآليات التي ترسّخ لهذا النوع من الاستعمار، وإنْ كانت بمساعدةٍ خاصّةٍ من بعض أبناء العروبة والإسلام؟

وفي ضوء هذه الإشكاليات تتمحور المحاور الآتية:

أ. الغزو الفكري و-الطابور الخامس ك-القواعد العسكرية

ب. التبشير ز-الأقليات ل- إثارة النزعات

ج. الاستشراق ح- المنح الداخلية م- تهميش دور اللغة

د. العولمة ط- البعثات الخارجية ن- وسائل الإعلام

ه. التغريب ي- صندوق النقد س-السيطرة على دور الإعلام والثقافة.

أما عن منهج الدراسة فهو يجمع بين المنهج التحليلي والمنهج النقدي، حيث تحلّل أولاً آليات الاستعمار الجديد مبينةً علاقاتها بالاستعمار، ثم تثني بنقد المباني التي تقوم عليها وفق أسسٍ معرفيّةٍ إنسانيّةٍ وعقديّةٍ عقليّة.

آليات الاستعمار الجديدة

أولًا. الغزو الفكري:

وهو غزوٌ غير مسلّحٍ، غزوٌ للأفكار والعقول؛ لتحقيق هدفٍ عام، وهو إضعاف الإسلام والمسلمين[١]. كما أنّه عبارة عن كلّ الأفكار أو المعلومات أو البرامج أو المناهج التي تستهدف صراحةً أو ضمنًا تحطيم مقومات الأمة الإسلاميّة- سواء العقدية أو الفكرية أو الثقافية، أو الحضارية، أو يتحرّى التشكيك فيها، والحطّ من قيمتها وتفضيل غيرها عليها، وإحلال سواها محلّها في الدستور أو مناهج التعليم أو برامج الإعلام والتثقيف أو الآداب والفن والنظرة الكلية للدين والإنسان والحياة[٢].

فهو إذًا إغارة الأعداء على أمة من الأمم بأسلحةٍ معينةٍ وأساليب مختلفةٍ لتدمير قواها الداخلية وعزائمها ومقومها والتهام كلّ ما تملك[٣].

وعليه فإنّ الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف استعمارية دون رغبةٍ الشعوب المستعمرة، أمّا الغزو الفكري فهو لتصفية العقول والأفهام لتكون تابعةً للغازي[٤].

ويمثّل الغزو الفكري إحدى الآليات الرئيسة التي يرتكز عليها الاستعمار الجديد ارتكازًا قويًا، فالغرب في مسعاه الاستعماري الجديد صدّر لنا من الأفكار التي لا تتناسب مع ديننا، ولا معتقداتنا، فضلًا عن عاداتنا وتقاليدنا. فالغزو الفكري لا شكّ أمرٌ واقع، لا ينكره إلّا جاحد، كما لا ينكره إلّا من لا يدرك حقيقة الدسائس التي تحيق بالعالمين: الإسلامي والعربي.

والغزو الفكري هو «مصطلح حديث يعني مجموعة الجهود التي تقوم بها أمةٌ من الأمم للاستيلاء على أمةٍ أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهةً معينة. وهو أخطر من الغزو العسكري؛ لأنّ الغزو الفكري ينحو إلى السرية وسلوك المسارب الخفية في بادئ الأمر، فلا تحسّ به الأمة المغزوّة، ولا تستعدّ لصده والوقوف في وجهه حتى تقع فريسةً له، وتكون نتيجته أنّ هذه الأمة تصبح مريضة الفكر والإحساس؛ تحبّ ما يريده لها عدوها أنْ تحبّه، وتكره ما يريد منها أنْ تكرهه.

---

١. أحمد بن عثمان بالاشتراك، المدخل إلى الثقافة الإسلاميّة، ص٢٤.

٢. مرسي، د. محمد عبد العليم، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية نظرة إسلاميّة، ص ١٤٦.

٣. الواعي، توفيق يوسف، الحضارة الإسلاميّةمقارنة بالحضارة الغربيّة، ص ٦٨.

٤. المصدر نفسه.

وهو داءٌ عضال يفتك بالأمم، ويذهب شخصيتها، ويزيل معاني الأصالة والقوة فيها، والأمة التي تبتلى به لا تحسّ بما أصابها ولا تدري عنه؛ ولذلك يصبح علاجها أمرًا صعبًا، وإفهامها سبيل الرشد شيئًا عسيرًا»[١].

ومن خلال هذا التعريف نفهم أنّ الغزو الفكري ليس غزوًا عسكريًّا، ولا صراع قوى بدنية يكون فيه البقاء للأقوى، ولكنّه نوعٌ من الغزو الذي يستخدم فيه العقول بهدف استعمارها، فهو نوعٌ من الاستيلاء على العقول، وإفراغها من جوهرها ومعتقدها وعاداتها وتقاليدها، لإحلال معتقداتٍ وتقاليدٍ وعاداتٍ أخرى تريدها الدول الغازية فكريًا، بحنو يكون هذا الإحلال مقدمةً للاستيلاء على هذه العقول، فتصير كالوعاء الذي يكتسب قيمته ممّا هو فيه، ومن ثم تنفيذ الخطط والأجندات الخاصة التي يريدها المحتلّ أو المستعمِر في ثوبه الجديد. وأخطر ما في هذا الغزو أنّ العقول العربية والإسلاميّة المغزوّة لا ترى خيرًا إلّا في الغرب، فتوجه نفسها شطره، طالبةً منه ما يقيم نهضتها، في الوقت الذي يجعل من هويتها ومعتقدها وتقاليدها هياكل منزوعة النخاع.

وقد يكون الغزو الفكري قائمًا على نوعٍ من التفريغ الفكري، فكثيرًا ما يغزونا الغرب من ناحية الشباب والفتيات، فنرى التقاليع الغربيّة الغريبة في شبابنا كحلاقة الشعر، ونوعية الملابس، وطرق الحوار، والتلفظ ببعض الكلمات الغربيّة التي لها معادلٌ لغويّ عندنا في العربية، في تهاونٍ واضح في حقّ اللغة.

ويمكن القول إنّ الغزو الفكري يتشكّل في ثلاث صور رئيسة، هي:

أ. الغزو التبشيري.

ب. الغزو الصهيوني.

ج. الغزو الإلحادي بصوره المختلفة.

بل إنّ هناك أساليب للغزو الفكري تتّبع الأمم التي تستهدف شعوبًا معيّنةً لغزوها فكريًا جملة من المنطلقات حتى تتمكن من تحقيق هدفها، وتكون على النحو التالي[٢]:

---

١. موقع ويكيبيديا

٢. الحياري، إيمان، بحث في الغزو الفكري، على الرابط التالي :

http://mawdoo3.com/%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D8%B9%D986%_%D8%A7%D98%4%D8%BA%D8%B2%D988%_%D8%A7%D984%%D981%%D983%%D8%B1%D98%A

أولاً. حملات التشويه: تستهدف حملات التشوية بالدرجة الأولى محاولة إقناع المسلم بزيف تاريخ الدين الإسلامي وتحريفه، بالإضافة إلى السعي الدؤوب وراء تحريف القرآن الكريم وتشويهه ومحاولة تفسير آياته بصورةٍ تتماشى مع أهوائهم، وكذلك الأمر فيما يتعلّق بالسيرة والسنّة النبوية الشريفة.

ثانيًا. التركيز على استهداف نظام الحياة الإسلاميّة من خلال انتقادها نقدًا لاذعًا، وذلك بـتوجيه التهم بالرجعيّة والتخلف للنظم الإسلاميّة وقوانينها، مع إلصاق تهمة القصور بها.

ثالثًا. اتهام نظام الحياة الإسلاميّة بالهمجية والوحشية.

رابعًا. اتهام الاسلام بعدم الاهتمام بغير المسلمين.

خامسًا - بثّ النزعات الجاهلية وإحياؤها، ويظهر هذا الأسلوب جليًا في إحياء نزعات بالية كالدعوة إلى نزعات قومية، وطائفية، وفرعونية، وغيرها، حيث إنّ الطائفية والنزعات العصبية والقبلية وغيرها بمختلف أنواعها لا تتماشى مع الدين الإسلامي ولا تمت له بصلة.

ثانيًا. التبشير:

يبدو التبشير آلية أساسية من آليات الاستعمار الجديد، والمتأمّل في حركة الاستعمار العسكري يجد أنّ التبشير كان يسير جنبًا إلى جنب معه، وكأنّه أراد أنْ يخلفه في بلاد الشرق في أمرٍ يشي بالخطة المُحكمة التي وضعها الغرب لإحكام سيطرته على العالم الإسلامي، بدليل الميزانيات الضخمة التي رصدت وما زالت لهذا الغرض، وآلاف الرجال الذي نذروا أنفسهم له، أو وظفتهم دولهم الغربيّة له.

وتبدو خطورة التبشير واضحةً في أفريقيا، وبلاد شرق أسيا الذين يدينون بالإسلام وغيره، ويقوم التبشير على مجموعة من المنطلقات يمكن الإشارة إلى بعضها في الآتي:

- التعامل مع الجهلة والفقراء والمهمشين بوصفهم أداةً طيعةً يسهل قيادها، والتحكّم فيها، وتحويلها عن دينها الأصلي.
- التجوّل وسط أطراف البلدان وتخومها والمناطق النائية منها، بوصفهم فئةً مهضومًا حقّها في الحياة عامة.
- التغول داخل الدول ذات الاقتصاد المتدني، والمعيشة الصعبة.

ـ الاجتماعات والمؤتمرات عند الحاجة لتصحيح الخطط والوسائل واتخاذ وسائل أكثر نجاعة، وكثرة هذه الاجتماعات والمؤتمرات دليلٌ على ذلك؛ حيث كان هناك اجتماع سنة ١٩٠٦م بالقاهرة، وآخر في عام ١٩١٠م بأيدنبرج، وثالث في عام ١٩٣٥م بالقدس، إلى غير ذلك من الاجتماعات والمؤتمرات التي كان غرضها العمل على توسيع رقعة التبشير.

ـ إنشاء قنواتٍ تليفزيونيةٍ وإذاعيةٍ مخصّصةٍ للتبشير والدعوة إلى النصرانية؛ للتأثير على الكثير من العوامّ من الناس الذين لم يتعمقوا في الإسلام، ولم يفهموه جيدًا، كذلك للتأثير على العديد من النخب والمثقفين الذين لم يُنشَّؤوا تنشئةً إسلاميّةً، ولم يدركوا قيمة الإسلام بما ينطوي عليه من عظمة.

ـ طباعة الأناجيل وتوزيعها على الناس في النوادي والمنتديات والفنادق وغيرها.

ـ إرساليات التبشير والمعونات الاجتماعية، حيث تدخل الأمم الغازية في صفوف المسلمين ومجتمعاتهم من باب المساعدة والمعونة والخدمات الاجتماعية؛ وذلك لإقناعهم بأنّهم يمدّون لهم يد العون دون مقابل انطلاقًا من أوامر دينهم، فتبدأ هنا المقارنة بين ديانة هذه الإرساليات والإسلام وتفضيلها عليه، وتركّز الإرساليّات التبشيريّة على وكالات الغوث، ودور الأيتام، والدول المنكوبة، والجمعيات الخيرية، والمخيمات، وغيرها، وتعمل على منح الأفراد بعض الامتيازات الأجنبية، وتوفير الحصانة الدبلوماسية للمستضعفين واستغلالها، والتركيز على الأقليات وزرع الفتن وإثارة النعرات فيما بينهم، فضلاً عن استغلال الوضع الراهن في المناطق وإحكام التعاون بين الوضع السياسي والإرساليّات التبشيرية، وتنظيم الرحلات والمخيمات الكشفية، مع تقديم التسهيلات الاقتصادية والمساعدات التي يُقدّم مقابلها الفرد تنازلات، وفتح سبل الحوار دون قيود أو حدود، واستهداف الغريزة الجنسيّة واستغلالها في استقطاب الأفراد، وعقد المحاضرات والندوات في الجامعات والجمعيات[1].

ثالثًا. الاستشراق:

المستشرقون: هم فئةٌ من غير المسلمين تخصّصوا بدراسة علوم الشرق ولغاته وتاريخه، وأخطر

١. الحياري، إيمان، بحث في الغزو الفكري، على الرابط التالي :

http://mawdoo3.com/%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D8%B9%D986%_%D8%A7%D98%4%D8%BA%D8%B2%D988%_%D8%A7%D984%%D981%%D983%%D8%B1%D98%A

المستشرقين المستشرقون الغربيون الذين اتّجهوا إلى دراسة العلوم الإسلاميّة والتاريخ الإسلامي واللغة العربية والأمة الإسلاميّة[١].

والاستشراق يقصد به: ذلك التيار الفكري الذي يتمثّل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي التي تشمل حضارته، وأديانه، وآدابه، ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربيّة عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة معبّرًا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما[٢].

ويعرّف قاموس أكسفورد الاستشراق بأنّه: «دراسة الشخصية الشرقية، من ناحية الأسلوب والخواص والصفات وطرق التفكير والتعبير ... الخاصة بتلك الأمم الشرقية، كما أنّه يعني أيضًا دراسة العلوم الشرقية أو معرفة لغات الشرق»[٣]. ويعرفه إدوارد سعيد قائلاً: «الاستشراق أسلوبٌ غربيّ للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيطرة عليه»[٤].

ومن ثم فإنّ الاستشراق يمثّل أحد الآليات البارزة في منهجية الاستعمار الجديد، إذ يمكننا القول إنّ الاستشراق كان يؤدّي ثلاثةً من الأدوار المهمة:

- دراسة العقيدة الإسلاميّة التي جابت المشرق والمغرب؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية وراء هذا المد المترامي.
- محاولة تقويض الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلامي.
- الوقوف على حقيقة الحضارة الإسلاميّة من جوانبها كافة.

ومن ثم فلم يكن الاستشراق ذا غرضٍ مذمومٍ في بعض جوانبه، وإنْ كنا نراه ذا غرضٍ مذمومٍ وهدّامٍ في أغلب جوانبه، حتى مع القول بأنّ غرضً الاستشراق كان محاولة فهم الحضارة الإسلاميّة، فقد كان له العديد من الأغراض والمساعي الأخرى التي كان هدفها تقويض هذه الحضارة ومحاولة الإجهاز عليها.

يكفي أنّ الغرب في آليته الجديدة المسمّاة بالاستشراق راح يجيش الجيوش من دارسيه لدراسة

١. الأشقر، عمر سليمان، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ص١٤٠.

٢. سعد الدين، إيمان عبد المؤمن، الثقافة الإسلاميّة والتحديات المعاصرة، ص ١٨٩.

٣. انظر قاموس أكسفورد، الناشر دار نشر جامعة أكسفورد، ١٩٨٩م.

٤. إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٣٩.

كلّ ما يتعلّق باللغة العربية بمختلف فروعها، والإسلام بكلّ فروعه من عقيدةٍ وتفسيرٍ وفقهٍ إلى غير ذلك من الفروع، فكان لهم مؤلّفاتهم في كلّ هذه الفروع، وهذا يفسّر لنا كمية الكتب التي خلفها الاستشراق وهو بصدد دراسة الإسلام واللغة العربية.

فالاستشراق ينطلق من دراساتٍ متخصصةٍ يقوم بها الغرب للإسلام في شتى جوانبه: العَقَدية، والتشريعية، والتاريخية، واللغوية، والحضارية، وفي النظم والإمكانات، بهدف تشويهِ الإسلام، ومحاولةِ تشكيك المسلمين فيه، وتضليلِهم عنه، وادعاء تفوق حضارتِهم (الغربيّة) على الحضارة الإسلاميّة(الشرقية) ومحاولة فرض التبعية لهم على المسلمين، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدّعي العلمية والموضوعية[١].

إذًا فقد كانت إشكالية الاستشراق تتمثّل في أنّه في الغالب أثار العديد من الشبه ضد الإسلام واللغة العربية؛ ربما رغبة في إضعاف روح العزيمة لدى الشعوب الإسلاميّة؛ حتى يسهل قيادها من قبل الغرب. فالاستشراق كان وسيلةً مهمةً للغرب من جانبين: الأول الإحاطة بجوانب الشخصية الإسلاميّة عقديًّا وحضاريًّا لتقديم صورةٍ واضحةٍ عنها إلى المدبرين الحقيقيين في الغرب، والثاني بثّ روح الخنوع والطواعية وزعزعة البعد الديني في النفوس.

وإذا نظرنا إلى العديد من المثقّفين العرب والمسلمين لتأكد لنا أثر الاستشراق بوصفه أداةً من أدوات الاستعمار الجديد بالفعل، فالمنهج واحد والفكر واحد، منهج يعمل دومًا على إقصاء الدين من حياة الناس، وفكر يعمل جاهدًا على أن يترجم هذا المنهج واقعيًا، حتى في إثارة الشبه؛ وذلك لأنّ هؤلاء المثقّفين استندوا إلى كتب هؤلاء المستشرقين، بل جعلوها وجهتهم، والغريب أنّ هؤلاء هم من يتصدّرون المشهد في بلادنا الآن في مفاصل الدول الإسلاميّة ومؤسّساتها.

ومن ثم فإنّ «من أخطر ما سلكه المستشرقون في دراساتهم تحطيم الوحدة الفكرية للمسلمين، وذلك بإثارة الخلافات الفكرية من آراء الفرق والمذاهب المخالفة لمذهب أهل السنّة والجماعة، وتقويتها وتمجيدها ونشْرها بين عامةِ المسلمين ليشغلوا أنفُسَهُم بها عن التفكير في عظائم الأمور؛ فتمزّقت بهذا الأمة الإسلاميّة أشلاءً متناثرةً هنا وهناك، وقام بين أبنائِها الخلافات والمشاحنات

١. غراب، أحمد عبد الحميد، رؤية إسلامية للاستشراق، ص٧، وانظر: عميرة، د. عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، ص ٩٠.

لاختلاف النظم والمبادئ والمناهج، ولا سيّما بعد اشتداد عزائم الأذناب في الاستمرار في إثارة تلك الخلافات»[١].

رابعًا. العولمة:

لا شك في أنّ العولمة شئنا أم أبينا بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ واحدةٌ من آليات الاستعمار الجديد، حتى مع فرض أنّها لم يكن الهدف منها ذلك، إذ إنّها بطريقةٍ غيرة مباشرةٍ، وربما غير مقصودةٍ صارت آلية ناجزة من تلك الآليات. فالعولمة جعلت من العالم المترامي الأطراف قريةً صغيرة، فهتكت ستر الخصوصية، وفضّت بكارة الهوية، ومن ثم فالأثر المترتّب عليها يجعلنا نحكم بسهولة أنّها ظهرت كنوعٍ من الغزو الفكري، إذ لما حولت العالم إلى تلك القرية الصغيرة، فإنّها نقلت عادات العالم السلبية منها والإيجابية إلى محيطنا الإسلامي، بيد أنّنا أخذنا من العولمة أسوأ ما فيها، فظهرت تقاليع غربية في قشور الحياة، في الملبس والمأكل والأمور الشكلانية، وطغت على الأمور الجوهرية من اهتمام بقيم العمل والجد فيه، واحترام الإنسان لذاته ولغيره، وبظهور الجانب الشكلاني في محيطنا وطغيانه عليه اطمئن المستعمر القديم إلى أنّ مخططاته الاستعماريّة الجديدة تؤتي ثمرتها.

غير أنّ التحدّي الذي نعيشه اليوم يفرض على أمتنا بلورة رؤيةٍ خاصةٍ نستطيع من خلالها أن نحقّق طرفي المعادلة وهما: كيفية الحفاظ على هويتنا من ناحية؛ بحيث لا نذوب في الآخر ولا نرتمي في أحضانه، فنمسي وقد ضاعت نقطة الارتكاز التي كنا نرتكز عليها، وهي هويتنا الثقافية وكياننا ومظهر خصوصياتنا، وكيفية الانفتاح في الوقت نفسه على العالم من حولنا لنستفيد من ثمرات المعرفة الإنسانية من دون أن نغامر بفقد هويتنا[٢]. فليس معنى أن نحافظ على هويتنا أن نتقوقع داخل الذات أو أن نسير بمبدأ الانكفاء على النفس، فليس ذلك هو ما يجب أن يكون؛ لأنّ التواصل مع الثقافات الأخرى مطلوب، فالانفتاح على العالم أصبح مظهرًا من مظاهر التحضر والتمدن، وأمرًا لا غنى عنه، فضلاً عن أنّ الآخر الذي يمتلك أدوات التكنولوجيا ووسائل العلم، وصناعة ما يسمّى بالمجتمع الرقمي، انتقالاً إلى ما يمكن أن نسميه العالم الرقمي، ومن ثم وجب علينا أن نتواصل معه رجاء العمل على تنامي هويتنا التنامي الذي لا يقضي عليها، ولكنه التنامي

١. الزيلعي، حمد بن علي آل عمر، الغزو الفكري وأركانه، على الرابط التالي :

https://saaid.net/bahoth/181.htm

٢. د. عبد الله بدران، صراع الهوية الإسلاميّة.

الذي يتجاوب مع معطيات العصر وأولويات التقدم. أما غير ذلك من مظاهر الانغلاق والتقوقع والانكفاء فلن تورثنا إلّا عزلة أكثر من سيعاني منها نحن؛ لأنّها حينها سوف تكون عزلة تغلق أبواب التطور والتحضر، عزلة تبقي الأوضاع الإسلاميّة على ما هي عليه، عزلة تزيد السلطة المستبدة استبدادًا، والطبقية الاجتماعية اتساعًا، والهوة الاقتصادية تغولًا، والهوية الثقافية افتقارًا واضمحلالاً.

خامسًا. التغريب:

التغريب - يعني في التحليل الأخير- عملية نقل للحضارة الغربيّة بسلوكيّاتِها وأفكارِها إلى العالم الإسلامي لتنافس الحضارة الإسلاميّة، عقيدةً، وشريعةً، وسلوكًا في قلوب المسلمين وعقولهم، بل لكي تحلّ محلّها عند بعضهم، وذلك بأيدٍ إسلامية ـ أو كان بعضُها إسلاميًا ـ متربية على المنهج الغربي المخالف للدين الإسلامي[١].

كان للتغريب وسائل كثيرة وأدوات متعددة كان لها تأثيرات متباينة وتنوعت هذه الوسائل والأدوات بين المباشر غير مباشر، المادي والمعنوي، الأجنبي والمحلي[٢] وقد اتخذ التغريب أساليب منظمة يراعي فيها طول زمن التنفيذ والتخفي والتستر، حتى لا تنتبه الأمة المسلمة إلى هذه المخططات، وإنّما تظل غافلة عنها حتى تستحكم ويصعب التخلّص منها[٣].

ومن ناحيتنا نرى أنّ للتغريب مجموعةً من الأسباب التي جعلت بعضًا من بني جلدتنا يوجهون شطرهم إليه، ومن هذه الأسباب:

أ. ضعف الوازع الديني عن زعماء التغريب في العالم الإسلامي؛ وربما ضعف التنشئة الدينيّة؛ حيث إنّه انطلق في كل مسعاه - وإنْ لم ينطق بذلك شفاهة - إلى عدّ الإسلام سبب تخلّف المسلمين، ومن ثم وجب عليه ألّا يعول عليه في النهضة المأمولة. مع أنّ واقع الأمر يقودنا في تأكيد لأحد الباحثين إلى أنّ سبب التخلّف السياسي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري كان وليد ضعف الجانب العقدي في نفوس المسلمين. فالواقع يؤكد على أنّ ذلك نتيجة البعد الواضح عن الدين، فالفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر هو السبب الرئيس فيما نعانيه الآن من

---

١. انظر الزيلعي، محمد بن علي آل عمر، الغزو الفكري وأركانه، على الرابط التالي:

https://saaid.net/bahoth/181.htm

٢. حسان محمد حسان، وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٦٣.

٣. انظر المصدر نفسه.

البعد عن التقدم الحضاري والعلمي، فالطب والفلك والهندسة والصناعة والتجارة وغيرهما من العلوم المادية، يتم استبعادها من عقلية المسلم من أن يتم تدريسها إلى جانب العلوم الدينيّة، ممّا يمثل مخالفةً صارخة، وانحرافًا ظاهرًا عن معطيات الحياة المختلفة[١].

إلّا أنّ التعلل بذلك والاتجاه إلى كلّ مخرجات الغرب ليس إلّا نوعًا من الإفلاس، والغريب في الأمر أنّ الغرب يغذي هذه الفكرة حتى يضمن تغلل قضية التغريب في عقول مفكري الأمة ومثقفيها، بوصفها سلاحًا جوهريًا وآلية لا غنى عنها في الاستعمار الغربي الجديد لبلادنا في الشرق الإسلامي.

ب. الإعجاب بالمنجز الغربي وحضارته المادية، وهذا هو السبب المكمل للسبب السابق، فالإنجازات الغربيّة إنجازات قوية وحضارته المادية حضارة جابت الآفاق، بيد أنّها حضارة جوفاء لا تقوم على جوانب روحية وقيم أخلاقية. فالدكتور طه حسين كان في ظنّي من زعماء التغريب المنبهرين بالثقافة الغربيّة والحضارة الغربيّة، حتى أنّه لقد ذهب إلى ضرورة الأخذ بالحضارة الغربيّة والسير خلفها حذو القذة بالقذة، وذلك في انبهار واضح بكلّ ما لدى الغرب[٢]. وهي دعوة نراها أخفّ من تلك الدعوة التي نادى بها الطهطاوي الذي رأى ضرورة توثيق العلاقات بين الشرق والغرب كشرط لازم لحدوث التقدم[٣].

كما يمكن القول إنّ التغريبيّين في العالم الإسلامي يركزون على أمرين:

الأمر الأول: تحويل المجتمعات الإسلاميّة إلى مجتمعاتٍ تغريبيّةٍ منفصلة الصلة عن دينها وهويتها وتاريخها، ومن ثم فلا مانع لديهم من تشويه التاريخ العربي والإسلامي والقدح في شخصياتها التاريخية، وتحويله إلى مجرد ماض أسود على البشرية جمعاء، بل عدّ بعض الشخصيات التاريخية التي يقدرها الشعوب المسلمة مجرد سفاحين أو مصاصي دماء. وهم في سبيل تحويل هذه المجتمعات إلى مرحلة التغريب لا يقيمون للدين وزنًا، وتقوم دعوتهم على أبعادٍ غير دينيّة، ومن ثم يوجهون جلّ اهتمامهم إلى تقديم المواد الإباحية الهابطة وتشجيعها، والدعوة إلى مشاركة المرأة للرجل في الميراث بمخالفة للنصوص القرآنية، والدعوة الفجة إلى تقنين الدعارة، إلى غير ذلك.

١. الزهراني، د. سعيد، الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ١٢٥/١ ـ ١٢٦.

٢. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص ٤٦.

٣. جمال سلطان، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٤.

الأمر الثاني: الربط من طرف خفي بين الالتزام بالدين والتخلّف الحضاري، فقضية الدين والنهضة شغلت حيزًا كبيرًا من اهتمام الشرق والغرب، ولكن على اختلافٍ كبيرٍ بينهما، فقد ذهب الغربيون إلى أنّ التنوير والتقدم وليدا العقلية الغربيّة، وأنّ التخلّف والبربرية وليدا طبيعة الشعوب العربية الدينيّة، ولو أنّهم تمهلوا قليلاً لعلموا أنّ للتقدّم أسبابه كما أنّ للتخلّف أسبابه، وتلك سنن الله في كونه لا فرق فيها بين أمةٍ مسلمةٍ وأخرى غير مسلمة. ومن ثم فإنّ من مظاهر دوغما الغرب أنّ كتاباتهم توحي- ويحاكيهم في ذلك بعض المفكرين في الشرق - بأنّ سبب التأخر الفكري والحضاري في العالم – وبالطبع الشرق الإسلامي على جميع الأصعدة - يعود إلى الدين، أي التمسّك بتعاليم الدين وتوجهاته ومبادئه العقلية والروحية، فجاء الغربيون فلصقوا الجهل بالدين والتنوير بالعقلانية الغربيّة، مع أنّ أسباب التقدم والتنوير لا ترتبط باتجاهات عقدية أو مذهبية؛ لأنّ أسباب التقدّم والتنوير معروفة وموجودة أكدتها أقلام العلماء والمفكرين، وهي في الحقّ أسباب تتعلّق بالفرد وأسباب تتعلّق بالجماعة أو الدولة. فعلى سبيل الفرد هل الدين هو سبب تخلف المسلمين في بلادنا أم يعود إلى تلك الشخصية الانهزامية التي تقوقع فيها المسلمون بدافع الفقر حينًا – الذي يرزح فيه مثلاً ما يقرب من خمسين في المائة من العرب – أم بدافع الجهل - الذي يرزح فيه مثلاً ما يقرب من أربعين في المائة – أم بدافع الاستبداد السياسي حينًا آخر؟ فنحن إذا عقدنا مقارنة بين الدول الغربيّة والدول الإسلاميّة في مسألة الحريات ومبدأ الديمقراطية لوجدنا البون شاسعًا، ولتأكد لنا ما هو سبب التراجع والتخلّف الذي تعانيه بلادنا. فلا الإسلام سبب في تأخّر المسلمين، ولا هو سبب في تدهورهم الحضاري والفكري، ولا يوصف المتمسكون به بالبريرية والجاهلية والرجعية في مقابل مصطلحات التنويرية والتقدمية التي يصف بها الغربيون أنفسهم.

سادسًا. الطابور الخامس:

وهو ذلك الطابور الذي يعمل على تحقيق أهداف الاستعمار، والطابور الخامس يوجد في كلّ قطاعٍ وكلّ مؤسسةٍ من مؤسسات الدول أيًّا كان طبيعة العمل الذي تقوم به، وهو يعني في التحليل الأخير مجموعة من الخونة والعملاء الذي يعملون مع الأعداء في الخفاء بهدف القضاء على الوطن والمواطن، فتنشر الفساد في الأرض، وهذا ما حاول الاستعمار الجديد أن يعمل عليه، حيث كان من أهمّ أدواته تدريب مجموعة من الخونة والعملاء ليس أمنيًا أو مخابراتيًا، ولكن فكريًا وثقافيًا، فراحوا يعملون ليس خلسةً فقط، ولكن علانية أيضًا، في تنفيذ الأجندة التي رسمها الاستعمار بدقة، فكانوا الأداة أو المعول الذي يقضي به الاستعمار على الأخضر واليابس.

وإذا كان الطابور الخامس يعمل عن عمدٍ فإنّه قد يوجد فريقٌ منه لا يعمل عن عمد، بمعنى أنّه قد يعمل في صف الاستعمار دون أن يدري، ظنًا منه أنّه يقدم خدمةً جليلةً لوطنه وأمته، مع أنّه في واقع الأمر يعمل في صف الطابور الخامس، وغالبية هؤلاء إنّما وجدوا في أفكار الاستعمار التي كان يروجها تحت ستار الحداثة متوافقة مع أيديولوجيتهم الفكرية، وربما كان ضمن هذا الطابور عن جهل.

ومن المهم التأكيد على أنّ الطابور الخامس لا يتقوقع داخل مكانٍ ما أو مؤسّسةٍ ما أو غيرهما، وإنّما يمتد بجذوره إلى كلّ المؤسّسات والأمكنة، وخاصة الأماكن ذات التأثير الكبير في عقلية الجماهير، مثل المؤسّسات الإعلامية والتنفيذية التي يمكن من خلالها التحكّم فكريًّا في كلّ مفاصل الدول.

سابعًا. الأقليات:

تبدو فكرة الأقليات من الأوراق المهمة للاستعمار الجديد التي يحاول من خلالها أن يضع يدًا له بسببها في كلّ دولة من الدول الإسلاميّة بدعوى امتهان حرية المعتقد عند الآخرين، ولا نعني بالأقليات هنا أنّ المواطنين ذوي الاعتقاد غير الإسلامي يساعدون الغرب على أن يجسم على صدورنا أبد الدهور؛ إذ إنّ من هؤلاء المواطنين من ضحى بالغالي والنفيس من أجل وطنه الغالي، ولم تكن قضية العقيدة لتفصل بينه وبينه واجبه القومي والوطني، وإنّما المقصود هنا أنّ قضية الأقليات تستخدم من قبل الغرب لتشويه صورة الإسلام بهدف التدخل في شؤون الدول الإسلاميّة.

مع العلم أنّ غالبية الأقليات يؤمنون بالوطن وشركاء فيه، ويحلمون بأن يكون وطنهم أفضل الأوطان وأعلاها قدرًا ومكانة، إلّا أنّ أيًا منهم لم يفكر يومًا في الاستقواء بالأجنبي الغربي المشترك معهم عقديًا، بل نجد من يعمل على وأد أيّ توجّهٍ غربيّ يحاول استغلال قضيتهم لأغراضٍ سياسيةٍ دنيئة. والأمر ذاته ينطبق على مسلمي الأرض المحتلة ومسيحيها، الذين يعملون يدًا واحدةً في مواجهة المحتل الصهيوني الغاشم.

ثامنًا. المنح الداخلية:

أقصد بالمنح الداخلية تلك المنح التي تقدمها بعض الدول الغربيّة لبعض الدول العربية والإسلاميّة، تحت ستار التعاون، أو إظهار حسن النوايا، وهذه المنح تكون موجهة لقطاعات مهمة في الدول كقطاع التعليم، وقطاع الصحة وغيرهما من القطاعات، ونحن نظن أنّ هذه المنح تكون

موجهةً بدقةٍ كبيرةٍ تنفيذًا لأجندات هذه الدول، وهذه المنح في رأيي تعدّ آليةً جديدةً من آليات الاستعمار الجديد.

والمتتبع لمسلك هذه المنح يجد أنّها تحاول أن توجّه أموالها لقضايا تكون في الغالب مثار جدالٍ بين المؤيدين والمعارضين، كقضايا الختان، والميراث والمرأة، إلى غير ذلك من القضايا. إلّا أنَّ هذا لا يمنع أنّها توجّه الكثير من أموالها نحو بعض الأعمال الإنشائية المهمة كبناء المدارس والمستشفيات، وغيرهما من الأعمال الإنشائية المهمة، ومع ذلك نراها أعمالاً غير خالصة النوايا؛ إذ بها تحاول هذه الدول المانحة أن تعبّر عن فوقيتها على الدول الممنوحة وشعوبها، أو لعله أداة جديدة من الأدوات التي تحاول بها استعمار شعوبنا من طرفٍ آخر، كمن يقدّم لضحيته السم في العسل.

تاسعًا. البعثات الخارجية:

تمثّل البعثات الخارجية - في جزءٍ منها ليس باليسير- آليةً من الآليات الاستعمار الجديد، فغالبية من يرون ضرورة نفض كلّ ما هو قديم من دين وتراث، إنّما كانوا من رواد تلك البعثات، وممّن كانوا قد أثّر عليهم الغرب بأفكاره ومعتقداته، وإنْ كنّا نرى أنّ لهذه البعثات مجموعةً من الغايات منها الإيجابي ومنها السلبي، فمن الناحية الإيجابية نجد أنّ لها دورها في التواصل العلمي بين الشرق والغرب، ودراسة سبل النهضة الحديثة، إلّا أنّه من الناحية السلبية بعثت في العقول المبتعثة بذور التغريب، وكانت سلاحًا فتاكًا يسهل طريق الغزو الفكري ويمهد له الطريق، وإنْ كان هذا لا يمنع من وجود عقولٍ مبتعثةٍ لم تستطع المدنية الغربيّة أن تقتلعها من جذورها، أو أن تكون متوافقةً مع قضايا العقل وقضايا التراث، دون تهميش لتراثنا وعقيدتنا.

والمتأمل للأثر السيّئ لهذه البعثات فليلتمس ما كتبه طه حسين عن موقفه من الحضارة الغربيّة، وكيف أنّه كان من زعماء اقتفاء أثر الغرب حتى نحصل على النهضة المنشودة وغيره كثر، فالطهطاوي الذي سافر إلى فرنسا ينظر إليه بعض الدراسين على أنّه رائد التغريب، ذلك أنّه نقل كلّ عادات الغربيّة التي رآها متمثلةً في المجتمع الفرنسي من حديث عن مأكلهم وملبسهم والنساء وغيرها دون نقدٍ من جانبه، ممّا جعله في موقف المؤيد، رغم اختلاف العادات والتقاليد والعقائد، كما أنّ هناك من يرى أنّه أنشأ مدرسة الألسن بإيعازٍ من الحكومة الفرنسية كمحاولةٍ لسحب البساط من تحت أقدام التعليم الديني في ذلك الوقت[1].

١. الشريف، سمير أحمد، جذور الهيمنة على الثقافة العربية الإسلاميّة، ص ٨٥٠١ ؛ وانظر: الطهطاوي، رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريزس، ص ١١٩ - ١٦٨ - ٣٠٥.

وقائمة التغريب طويلة: سلامة موسى، وقاسم أمين، ومحمد أركون، وغيرهم كثيرون ممّن تعج بهم بيئتنا.

عاشرًا. صندوق النقد:

يمثل صندوق النقد الدولي واحدًا من آليات الاستعمار الجديد للسيطرة على العالم عامة والشرق الإسلامي خاصّة، فصندوق النقد الدولي عبارة عن أداةٍ لإفقار الدول الفقير على فقرها، وإغناء الدول الغنية على غناها، يكفي أن ندرك كم الشروط المجحفة التي يشترطها هذا البنك على الدول الفقيرة التي تحتاج إلى قروض لإنعاش اقتصادها، إذ إنّ المتأمل في هذه الشروط يجد أنّها تكرّس لنوعٍ آخر من الاستعمار الجديد، فمن هذه الشروط رفع أسعار المواد الأساسية كالغاز والسلع الغذائية وكلّ ما يتّصل بحياة المواطن الكادح، فكيف نفسّر حينها سعي الدول الفقيرة في سبيل الحصول على القروض لإنعاش اقتصادها في الوقت الذي يقوم هذا القرض على إذلال المواطنين بزيادة الأسعار؟ ومن هذه الشروط رفع قيمة الفائدة على هذه القروض بوصفها ديونًا مستحقة الدفع مع الفائدة المتراكمة المترتبة عليها، إذ يتحوّل بهذا الأمر من كونه محاولةً لإنعاش الاقتصاد إلى وسيلةٍ لتقويض دعائم هذه الاقتصار والوصول به إلى حالة الانهيار بإنهاكه بمجموعةٍ من الديون التي لا تستطيع الدول الوفاء بسدادها ولو على مرور عشرات السنين، وهذا يعني في التحليل الأخير أنّ هذه الصندوق بهذه الشروط ليس إلّا وسيلة ناعمة من قبل الغرب لاحتلال الشرق الإسلامي في ثوبٍ جديد.

حادي عشر. القواعد العسكرية:

تمثّل القواعد العسكرية التي تُنشئها بعض الدول الغربيّة في البلاد الإسلاميّة نوعًا من الآليات الجديدة للاستعمار في صورته الناعمة، فالغرب المتوحّش استطاع أن يقيم قواعد عسكرية في بعض البلدان الإسلاميّة بحجة حفظ الأمن أو ميزان القوى في المنطقة منطقة الشرق الأوسط، أو بدعوى التعاون العسكري، وليست هذه القواعد في الحقيقة إلّا آلية جديدة من آليات الاستعمار الجديد.

ثاني عشر. إثارة النزعات القومية والعرقية والدينية:

لا شك في أنّ الغرب يعمل على توطين ذاته داخل البلاد المحتلة، ومن تلك الأدوات أو الآليات التي يستند إليها في تحقيق هذا الغرض إثارة النزعات القومية والعرقية والدينية، وقد تحدثنا سابقًا عن إثارة النزعة الدينيّة فيما يتعلّق بالأقليات.

والملاحظ أنّ الاستعمار قد وضع خطةً خبيثةً في ترسيم الحدود، وهو الترسيم الذي صنع العديد من الفوارق والخلافات الأزلية بين أبناء الوطن الواحد، حتى صارت كلّ بلدةٍ متقوقعةً داخل حدودها ومتخذةً من نفسها قوميةً بمفردها، فصار لكلّ وطنٍ قوميته، فتعدّدت القوميات والحزبية، وظهر التناحر بين الدول بوجهه القبيح الذي ما أتى به إلّا الغرب المستعمر.

بل لقد صنع الاستعمار فرقةً بين هذه الدول سواء في الوطن العربي أم الإسلامي، فأثار القضايا العرقية التي صنعت إشكالياتٍ كبيرةً على مستوى عالمنا الإسلامي، بل على مستوى العالم أجمع، انظر مثلاً الإشكالية الأزلية بين العرب أو فلسطين وبين الكيان الصهيوني، وكيف يعمل الغرب وأمريكا خاصة على أن يزداد الوضع اشتعالاً، ثم انظر إلى تلك النزعات العرقية في العديد من الدول الإسلاميّة، فإنّك تجد للغرب المستعمر فيها يدًا، بل اليد الطولى. وهو يريد أن يبقى الأمر على هذا الوضع؛ لأنّ الخلاف بين الدول العربية والإسلاميّة على تلك الأمور إنّما فيه تحقيقٌ للأهداف التي يتمناها الغرب، والتي تتلخّص في إضعاف المسلمين والسيطرة عليهم وعلى مقدراتهم، حتى تتحقق المركزية الغربيّة في العالم.

ثالث عشر. تهميش دور اللغة:

وأول ما يمكن ملاحظته في تهميش دور اللغة أنّ الغزو الغربي الجديد يستخدم آلية الانقضاض على المناهج الدراسية، ليس بنفسه، ولكن من خلال أعوانه ومتملقيه في الشرق، الذين كان كلّ همهم هو الإكثار من تدريس اللغات الغربيّة، بدعوى مواكبة العصر والتواصل مع الحداثة الغربيّة، بحيث تستطيع القضاء على اللغة الأم وهي اللغة العربية التي هي لغة القرآن، ومن ثم وجدنا تدريس اللغة الإنجليزية مثلاً في السنوات الدراسة المبكرة، بل جعل تدريسها يبدأ مع السنة الأولى التي يخط فيها الطفل بقلمه في مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية، مع أنّ واقع الأمر يقتضي أن يتقن الطفل أولاً لغة بلده؛ كونها تمثّل أحد روافد هويّته التي ليس له وجود بغيرها في ظل عالم تتخاطفه الهويات الغازية.

ومن ذلك أيضًا ما نجده من دعوات لا تحترم الهوية، قوامها الدعوة إلى إحلال اللغة العامية واللهجات المحلية محل اللغة العربية الفصحى، وهذا يفسّر لنا الآن لماذا انتشرت هذه اللغة وتلك اللهجات؟ حتى إنّ اللغة العربية الفصحى لم تعد لغة الناس، وإنّما صارت لغة المناسبات الرسمية، رغم ما يمكن سماعه فيها ممّا يؤذي اللغة العربية ذاتها. والغريب أنّنا نجد كذلك اهتمامًا واضحًا بالأدب الشعبي على حساب أدب الفصحى.

رابع عشر. وسائل الإعلام:

إنّ تلك الثورة التي نحياها في وسائل الإعلام نتيجة العولمة بكلّ تداعياتها وأحداثها، لتطرح سؤالاً من الأهمية بمكان، وهو هل ينبغي لنا النظر إلى ذلك الانفجار المعلوماتي الكبير أو ما نسميه الثورة التكنولوجية، من زاوية منفرجة، لكي نتبين من خلالها حقائق الأمور؟ أم ننظر إليها من زاوية ضيقة فتتوه النظرة، وتختلّ الرؤية؟ لا شكّ في أنّنا في حاجة ماسّة إلى تلك الزاوية الأولى؛ لأنّها ستمكننا من النظر إلى العولمة على أنّها جزءٌ من الحداثة المادية الغربيّة بكلّ مشتملاتها، وهي في ذلك تنطوي على بعد تنويري ذي صبغة غربية، إلّا أنّها تمثّل – في جانب منها - تهديدًا لهويتنا وثقافتنا في شقها الأخلاقي، الذي يهدد بوضوح الهوية الثقافية.

وعليه فإنّ وكالات الإعلام والإعلام بكافة ألوانه: المسموع، والمرئي، والمكتوب، المتمثّل في الإذاعة، والفضائيات بقنواتها المختلفة، والصحف والجرائد والمجلات، والإعلام الكتروني بما يستند عليه من شبكات التواصل الإلكتروني، أصبح لها مردود سلبي على الهوية عامة والهوية الثقافية خاصةً، فهي أولاً دليلٌ على سيطرة وسائل الإعلام في الدول الغربيّة، وثانيًا - وهو الأمر المترتب على ما سبق – تمثّل تهديدًا واضحًا للهوية الثقافية والقيم الأخلاقية والدينية، وقد ساعدت بعض وسائل الإعلام العربي على ذلك بعدم جودته أو حياديته في معالجة الأمور، فأصبح ينطلق من زاوية ضيقة قوامها التعصب والانغلاق، فتراجعت قيم كما نظنها ثابتة، وحل محلها قيم مغايرة وثقافات بديلة لا تعبّر عن مضمون الهوية الثقافية العربية.

ويمكن القول إنّ الكلام عن الهوية الثقافية الوطنية يثير إشكالية الإعلام الذي يمثّل المنظومة التي تحفظ هذه الهوية، والتي تؤرّخ لها، والتي تنقلها من جيل إلى جيل بامتياز، فإذا كان الإعلام يرتبط ارتباطًا عضويًا بمكونات الهوية الثقافية الوطنية فإنّ مخرجاته تخدم بدون أدنى شك هذه الهوية، وتعمل على صيانتها وتقويتها وتنميتها في إطار التنمية المستدامة، والحركة التي يعيشها المجتمع ضمن التحولات والتطورات العالمية. أمّا إذا كانت المنظومة الإعلامية مهزومةً وغير منتجة ومستقبلةً ومستهلكةً فقط فإنّها بدلاً من أن تسهم في الحفاظ على الهوية الوطنية وزرع مكوناتها في المجتمع، تتنصل من هذه المكونات وتفرز قيمًا وأفكارًا ومعتقدات وسلوكيّات تتنافى وتتناقض وتتنافر مع كلّ ما هو وطني وقومي ومحلي. وهذا ما يؤدّي إلى ظاهرة الاغتراب والانسلاخ والذوبان في الآخر، وتقمّص واقع وشخصية غريبة لا تمت بصلة إلى واقع وشخصية الوطن والبلد والأمة. وعلى حد قول (فرانتز فانون) في كتابه (أقنعة بيضاء وبشرات سوداء)، يلبس الفرد في ظل

ظاهرة الاغتراب والانسلاخ أقنعة الآخر ما يجعله تائهًا في عالم ازدواجية الأنا والشخصية والهوية، وفي النهاية يجد نفسه مثل اللقيط الذي لا يُعرف له أصل ولا نسب[١].

خامس عشر. السيطرة على دور التعليم والثقافة:

تعدّ المؤسّسات التعليمية: المدارس والجامعات الركن الأوّل والرئيس في نشر الأفكار الغربيّة المراد توطينها في العقول، ومن ثم يُركّز الغزو الفكري على هذه المؤسسات.

ولا شك في أنّ أهم ما يركز عليه الغزو الفكري في هذه المؤسسات هو المناهج الدراسية؛ حيث تتعرض لتدخلٍ كبيرٍ من قبل الغرب، ممّا يعدّ نوعًا من الغزو الفكري غير المباشر تجاه الشرق وأبنائه، ويتمثّل هذا الغزو في إجبار الدول على اتباع سياساتٍ فيها تهميشٌ لعقيدتها وهويتها ولغتها، وهذا ما نجده مثلاً في محاولات الغرب الدؤوبة على تغيير مادة التربية الدينيّة الإسلاميّة، واستبدال بها مادة أخرى تستوعب كل الأديان على ظنهم.

ولا يخفى ما فعله الاستعمار في صورته العسكريّة بالمؤسّسات التعليمية في البلاد المحتلة، وهذه تعدّ طريقةً مباشرةً كان قوامها تدريس لغة المستعمِر، وتهميش دور الدين والهوية في نفوس الشعوب، وهذه ما يفعله الاستعمار الجديدة الآن بصورةٍ غير مباشرة، فالغرب استطاع أنْ يشكّل جيلاً من تلاميذه الشرقيين الذين حملوا الراية من بعده، وقاموا بدوره خير قيام، والعديد منهم قد تتلمذ «على أيدي هؤلاء المستشرقين عن طريق إيفادِهم إلى بلاد الغرب .... واستقدام أعلام المستشرقين ـ في بداية الأمر ـ إلى البلاد العربية والإسلاميّة ليعملوا في مؤسساتها الفكرية والتعليميّة»[٢]. فصار كلّ تلميذٍ نخبويًا – بالمعنى الدراج الآن – يمثّل فكره سلاحًا مصوبًا ضدّ التعليم في بلادنا، فصاروا يتحدّثون بلغة الغرب، وأنّه يجب على ظنّهم الإجهاز على التعليم الديني تطبيقًا لرآهم التي ترفض الدين.

كما أنّنا نرى في وجود مدارس اللغات على كثرتها والمدارس التبشيرية والجامعات: الأمريكية والروسية والألمانية وغيرها نوعًا من الآليات التي تعبّر عن الاستعمار الغربي في صورته الجديدة.

بل لقد كانت الدعوة إلى الإباحية بديلاً عن التعليم والتربية والقيادة، حيث «تركز الأمم الغازية على الإباحية وتحليلها، والتشجيع على انتشارها وتفشيها في جسد الأمة الإسلاميّة الواحدة حتى

---

١. انظر محمد قيراط، الإعلام والاغتراب والهوية الوطنية :

http://www.djazairess.com/echorouk/49893

٢. الندوي، د. تقي الدين، السنة مع المستشرقين والمستغربين، بحث منشور ضمن بحوث كتاب: الإسلام والمستشرقون، ص ٣٥٤

تخرج الشعوب الإسلاميّة عن فطرتها السليمة، وتنخرط بالثقافات الغربيّة. إضعاف دور الدعاة والفقهاء في التوجيه والقيادة، السيطرة على دور التعليم والثقافة»[١].

الخاتمة

نتهي من السطور السابقة إلى مجموعةٍ من النتائج التي تمخّضت عنها هذه الدراسة، وهي على النحو الآتي:

أ. أنّ ما يُسمّى بالاستعمار لا يملك من مدلوله اللغوي شيئًا، فالمعنى اللغوي يحمل معنى التعمير أو طلب العمران، وهذا أبعد ما يكون عن الاحتلال الغربي قديمًا وحديثًا؛ لأنّه ما جاء إلّا لتخريب العالم الإسلامي طلبًا لمنفعته واستنزاف خيرات هذه البلدان وثرواتها، والتحكّم في مقدراتها، والآليات الجديدة للاستعمار تؤكّد على هذا.

ب. أنّ ما يُسمّى بالاستعمار الجديد لا يختلف في غاياته وأهدافه عن نظيره القديم؛ فالنظرة العدائية للعرب والمسلمين ما زالت تتحكم فيه، وربما كان هاجس الخوف تجاهنا سببًا في هذه النظرة العدائية.

ج. أنّ مرحلة ما بعد الاستعمار تحاول أن تنقل الصراع من تجييش الجيوش والحروب العسكرية، إلى آلياتٍ جديدةٍ توفّر منها خلالها قوتها البشريّة ممثلةً في الجنود وإمكاناتها المادية ممثلةً في أدوات الحرب والقتال، بحيث تكون هذه الآليات الجديدة أوقع أثرًا من سابقتها في تحقيق الأهداف الخبيثة التي ترتئيها.

د. أنّ آليات الاستعمار الجديدة للتحكّم في العرب والمسلمين عديدة ومتنوعة، لتسهّل على المحتلّ التغلغل في جميع مناحي الحياة، ومنها آليات فكرية وتعليمية وسياسية واجتماعية وغيرها. وقد تطرقنا في هذه الدراسة إلى بعض هذه الآليات، مثل: الاستشراق، والتبشير، والأقليات، وإثارة النعرات، والغزو الفكري.. إلخ.

هـ. أنّ هذه الآليات تمثّل خطرًا كبيرًا يجب مواجهته بكلّ السبل الممكنة، حتى نستطيع محاصرتها وإيقاف توغلها في البيئة الإسلاميّة، في ظلّ عالمٍ صارت فيه الحروب عقليةً وفكريةً في المقام الأول تحت غطاء من التكنولوجيا الجارفة.

---

١. الحياري، إيمان، بحث في الغزو الفكري، على الرابط التالي :

http://mawdoo3.com/%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D8%B9%D986%_%D8%A7%D98%4%D8%BA%D8%B2%D988%_%D8%A7%D984%%D981%%D983%%D8%B1%D98%A

المصادر والمراجع:

أولًا . الكتب

١. أحمد بن عثمان بالاشتراك، المدخل إلى الثقافة الإسلاميّة، مدار الوطن للنشر، السعودية، ٢٠١٢ م.

٢. إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال بو ديب، طبعة ١٩٧٨م.

٣. غراب، أحمد عبد الحميد، رؤية إسلامية للاستشراق، ط مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ١٩٨٨م.

٤. سعد الدين، إيمان عبد المؤمن، الثقافة الإسلاميّة والتحديات المعاصرة، مكتبة الرشد، ط٣، ١٤٢٧هـ.

٥. الواعي، توفيق يوسف، الحضارة الإسلاميّة مقارنة بالحضارة الغربيّة، ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ.

٦. جمال سلطان، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي المعاصر، ط مركز الدراسات الإسلاميّة، برمنجهام، ١٩٩١م.

٧. حسّان محمد حسّان، وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مكة المكرمة، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، ١٩٨١م.

٨. الطهطاوي، رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، طبعة القاهرة، كلمات عربية للطبع والنشر، ١٨٣٤.

٩. الزهراني، سعيد، الاتجاه العقلاني لدى المفكرين الإسلاميين المعاصرين، رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ٢٠٠٠م.

١٠. الشريف، سمير أحمد، جذور الهيمنة على الثقافة العربية الإسلاميّة، مجلة التاريخ العربي، مجلد ١.

١١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، طبعة القاهرة، ١٩٣٨م.

١٢. عبد الرحمن عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، ط دار الجيل، ١٩٩٩م.

١٣. عبد الله بدران، صراع الهوية الإسلاميّة، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٥٦٤، يونيو ٢٠١٢م.

١٤. الأشقر، عمر سليمان، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٥هـ.

١٥. محمد عبد العليم مرسي، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية نظرة إسلامية مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٥م.

ثانيًا. القواميس

١٦. قاموس أكسفورد، الناشر دار نشر جامعة أكسفورد، ١٩٨٩م.

ثالثًا. الروابط والمواقع الإلكترونية

١٧. الندوي، تقي الدين، السنّة مع المستشرقين والمستغربين، بحث منشور ضمن بحوث كتاب: الإسلام والمستشرقون.

١٨. الحياري، إيمان، بحث في الغزو الفكري، على الرابط التالي:
http://mawdoo3.com/

١٩. الزيلعي، محمد بن علي آل عمر، الغزو الفكري وأركانه، على الرابط التالي :
https://saaid.net/bahoth/181.htm

٢٠. محمد قيراط، الإعلام والاغتراب والهوية الوطنية:
http://www.djazairess.com/echorouk/49893